تمثيلية

أيام يصنعها الإسلام

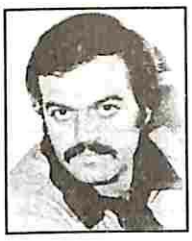

سميح سرحان
سورية

الفصل الأول

المشهد الأول

المدخل: السلاجقة:

يفتح الستار على القائد السلجوقي «ألب أرسلان» وحاشيته وهم في كامل عتادهم ولباسهم الحربي في ذاك الزمن.

المكان: آسيا الصغرى (نيقية). المعركة ملازكرد.
الزمن: ١٠٧١م.

رجل أول: الله أكبر، أيها القائد!

رجل ثان: إنها معركة قوية، تلك التي خضناها مع الروم البيزنطيين

القائد: نعم.. إنها الأولى.. الحمد لله.. أيها الرجال لنكن على حذر من الأعداء؛ لأن شيمتهم الغدر!.

الرجل الثالث: إن فضل الله عظيم علينا.. ألحقنا بهم هزائم وخسائر فادحة!.

القائد: أحسنتم.. أحسنتم يا رجال.. بارك الله فيكم.. ووفقكم إلى النصر المستمر.

الرجل الثاني: الله أكبر.. نحن الآن قرب عاصمتهم أيها القائد!

القائد: لقد تمكنا الآن بحماية الله ورعايته أن نتقدم بجيوشنا السلجوقية إلى عمق الأراضي البيزنطية

الرجل الأول: لقد طاردناهم.. وتمكنا منهم!

القائد: صحيح.. إلا أن هزيمتهم، جعلتهم يرسلون إلينا أن نهادنهم، وقبلنا الهدنة!.

الرجل الثاني: بارك الله في الجهود النبيلة المسلمة.

القائد: علينا أيها الرجل. أن نرعى ما أخذناه من أراضٍ، ونحافظ على كل شبر منها، وأن نكون حذرين من الفاطميين في مصر، حيث تحالفوا مع أعدائنا النصارى ضدنا!..

الرجل الأول: الله أكبر! كان الله في عوننا جميعاً! (يخرجون ثم يعودون).

الرجل الثالث: أيها القائد.. إن البيزنطيين يظنون أننا ضعفاء، بسبب الهدنة التي رضينا بها!.

الرجل الثاني: هم الذين طلبوها ويهددوننا؟! ماذا قالوا؟!

المراسل (مع الحاشية) ومعه رسالة يقرأ منها:

أيها القائد: يقول الإمبراطور البيزنطي: «لا هُدنةَ إلا بالرَيّ».

القائد (بعصبية): أو يقول هذا؟! أي لن يتوقف إلا في مدينة الرّيّ أيها الرجال!

الجميع: فلنكن على حذر.. وعلى استعداد دائم!

القائد: لنكن مستعدين جميعاً.. فالقتالَ القتالَ.. وعلى بركة الله!.

الرجل الأول: فلتبدأ المعركة.. ولنتقدم!
تطفأ الأنوار... وبدأت المعركة.. (مؤثرات صوتية)

الرجل الأول: الله أكبر.. الله أكبر..

الرجل الثاني: لقد تمكن الجيش السلجوقي من أسر الأمبراطور رومانوس الرابع «ديوجنيس».

الرجل الثالث: يا الله.. إن البيزنطيين يتقهقرون!.

الرجل الأول: إنهم ينهزمون.. الله أكبر.. يقتلون.. قضينا على معاقلهم.. استولينا على عديد من مدنهم..

الرجل الثاني: لقد أصبحتْ نيقية في يدنا!
الله أكبر.. الله أكبر، لقد انتصرنا على بيزنطة!!

الجميع: الله أكبر... انتصرنا على بيزنطة!!
يخرجون.

يدخل راويان: يسلط على كل واحد منهما الإضاءة:

الأول: فتحت هذه المعركة أبواب آسيا الصغرى للسلاجقة.

الثاني: أخذوا يوسعون ممتلكاتهم على حساب الأراضي البيزنطية..

الأول: استولى سليمان بن قتلمش على الكثير منها.

الثاني: وتوّج ذلك باستيلائه على أنطاكية (عام ٤٧٧ هـ).

الأول: ناهيك عن الأراضي التي استولى عليها الأمراء الأقل شأناً من سليمان.

الثاني: ومن بينها قلاع ومدن هامة ومن بين أولئك الدانشمند - وشاكا..

الأول: وخوشك وغيرهم.. فكان لابدّ أن يعمد الأمبراطور البيزنطي ألكسي كومنينوس إلى الاستنجاد بالغرب النصراني.

الأول: فرفع النصارى شعار نجدة البيزنطيين الأرثوذكس ضد المسلمين.

الثاني: فاتحين بذلك حروباً، وعرفت فيما بعد بالحروب الصليبية، ودامت مئتي عام..

«ستار..»

المشهد الثاني

يدخل أحد المقدمين: والآن أيها الإخوة الكرام، نتابع مشاهد أيام يضيئها الإسلام

المشهد الثاني: عنوانه الصليبيون

صوت من داخل الجمهور: (يصرخ): قف..قف!

المقدم: «يتساءل»: مَنْ؟ مَنْ هناك؟!

شخص بجانبه: من الذي يزعج هدوء مسرحنا؟

رجل من الجمهور الذي صرخ: يقترب من خشبة المسرح: هذا المسرح ليس ملكا لكم!! إنه ملك الجمهور الحاضر كله!

رجل ثانٍ يخرج مع الأول: نعم.. علينا أن نفهم كلّ كلمة تُقال منذ البدء.. وتوضحون لنا ما نسأل؟!

المقدم: وماذا تريدون أن تسألوا؟

الأول: مَنْ هم الصليبيون؟

المقدم: نعْمَ السؤالُ سؤالُكمْ، يا حسامَ الدينِ أخبر القومَ مَنْ هم الصليبيون؟ وما أسباب مجيئهم إلى بلادنا؟!

يفتح الستار على ثلاثة من الرواة.. (تلاحقهم الإضاءة):

الأول: امتدت الفتوحات الإسلامية إلى آسيا وأفريقيا و أوربا واستخلصت الأراضي من النفوذ النصراني..

الثاني: صار الناس في دولة السلاجقة يعيشون حياة بذخ وخيلاء..

الثالث: فصار الضعف يدبّ في هذه الدولة، حيث مات القادة الكبار وخلفهم من كان يحكم بالسلطة والدنيا، فضاع ما بناه الأجداد وأهدر ما استشهد من أجله الأتقياء.

الأول: حقد النصارى على الإسلام والمسلمين نتيجة لذلك..

الثاني: فاستنجدوا بالدول النصرانية المجاورة..

الثالث: وتحمس رجال دينهم.. من أساقفة ورهبان، وتجسد حماسهم في سلب بيت المقدس من المسلمين.. ثم الحدّ من الزحف الإسلامي المستمر الذي كاد أن يعم العالم.. وتوقيفه.

الأول: غفران ذنوب وخطايا كل من يشارك في حملة حروبهم التي بدؤوا يستعدون لها..

الثاني: ظنوا أن الأراضي المقدسة في فلسطين تفيض.. لبناً.. وعسلاً!

الثالث: فاجتمع الإقطاعيون.. والتجار، والأمراء من جنوب

فرنسا وشمالها.. وإيطاليا.

الأول: فالتقى الجميع في القسطنطينية، ووجدوا دربهم مفتوحاً أمامهم فتغلغلوا فيما لم يكونوا يحلمون به.

الثاني: فعبروا آسيا الصغرى..

الثالث: اعترضهم الجيش السلجوقي.. وجرت معارك كبرى..

الأول: تقدم من خلالها النصارى.. متجهين إلى أنطاكية وحاصروها ثمانية أشهر واستولوا عليها.

الثاني: ساروا إلى بيت المقدس.. حاصروه شهراً... ثم ... سقط بأيديهم.

الثالث: فعلوا ما تأباه الأديان.. من فظاعة، وشناعة، وانتهاك!

الأول: بلغ عدد القتلى في ذاك الوقت، ما يزيد عن سبعين ألفاً..

الثاني: سالت الدماء أنهاراً في المسجد الأقصى.. وفي الحارات والدور..

الثالث: سَبَوْا النساء وقتلوا الأولاد..

الأول: نهبوا الأموال، وحرقوا الدور..

الثاني: هتكوا الأعراض كما يحلو لهم.. وحوّلوا المساجد إلى كنائس! ودور العلم إلى خمارات!.

الثالث: استقر الصليبيون في البلاد الشامية، وأسسوا إمارات عديدة.

الأول: امتدت هذه الإمارات: من خليج الإسكندرونة، إلى عسقلان.. ومن خليج العقبة، إلى شمال الرها.. شرق تركيا الآن!.

«في هذه الأثناء» يدخل شاعر من شعراء العصر المعروفين.. ويلقي أبياته المصورة لوحشية الصليبيين:

أحلَّ الكفرُ بالإسلام ضيماً
يطولُ عليه للدين النحيبُ
فحق ضائع وحمَى مباح
وسيف قاطع ودم صبيبُ
وكمْ من مسلمٍ أمسى سليباً
ومسلمةٍ لها حرم سليبُ
وكم من مسجدٍ جعلوه ديراً
على محرابه نصبَ الصليبُ
أتُسْبَى المسلماتُ بكلِّ ثغْرٍ
وعيشُ المسلمينَ إذن يطيبُ؟!
أما للهِ والإسلام جندٌ
تدافع عنه شبانٌ وشيبُ
فقل لذوي البصائر حيث كانوا
أجيبوا اللهَ ويحكمُ أجيبوا

ويشيع الحزن والقهر في هذه الأمة وتمضي مئتا عام في ذل وخنوع واستبداد إلى أن هيأ الله رجالاً صادقين يرفعون راية الجهاد مدافعين عن دينه.. أمثال عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود والقائد الملهم صلاح الدين الأيوبي الذي حرر بلاد المسلمين من رجس الصليبيين..

الجميع: الله أكبر.. الله أكبر..

«ستار»

الفصل الثاني

الأيوبيون

يفتح الستار على: صلاح الدين الأيوبي...القاضي بهاء ابن شداد.

ابن أخ صلاح الدين/ تقي الدين عمر القائد العسكري/ مظفر الدين كوكبري. مع رجالات أخرين.. بملابس حربية..

صلاح الدين: الحمد لله لقد أسس عماد الدين زنكي حركة الجهاد الإسلامي ضد الإفرنج في وقت عصيب!

القاضي: حقاً، فقد تمكن من توحيد سورية وآسيا الغربية..

تقي الدين: لقد سخر كافة موارده وقوته في خدمة الجهاد في سبيل الله ضد الإفرنج.

مظفر: لقد علمنا دروساً عظيمة حيث أنشأ مدارس الدعوة الإسلامية التي افتقدناها..

صلاح الدين: الحمد لله.. لقد تمكن من تحرير مملكة الرها من الصليبيين بعد حصارها

ثمانية وعشرين يوماً.. وكانت ضربة عنيفة موجعة.. ولأول مرة يقوم للمسلمين قوة ضد النصارى.

الجميع: الحمد لله والشكر له.. الله أكبر..

صلاح الدين: لكن.. استشهد عند أسوار «قلعة جعبر» دون أن يحقق ما أراد ضد النصارى.

القاضي: الحمد لله أن ابنه نور الدين تابع خطاه.

صلاح الدين: نعم.. وقد تمكن من توحيد العالم الإسلامي في الجزيرة وبلاد الشام..

القاضي: لقد ضم دمشق نهائياً إلى حكمه.

صلاح الدين: تمكنت مع عمي أسد الدين عندما استنجد به «شاور السعدي» وكنت معه سنداً له.. وضممت مصر بعد ما تسلمت وزارة عمي أسد الدين بعد وفاته.

مظفر: حمداً لله أنك تمكنت بتوفيق من الله أن تضم مصر بعد وفاة الخليفة الفاطمي العاضد..

صلاح الدين: نعم.. كان ضعيفاً، ولم يقاومني أحد.. رحم الله نور الدين محمود.! يا رجال!! إننا الآن نتابع المهمة الملقاة على عاتقنا.. ادعوا الله أن يوفقنا بنصره..

تقي الدين: يا عماه!! أيها القائد!! بارك الله لك فيما تحكم.. فقد تمكنت الآن من ضمّ - مصر - وبلاد النوبة، وشمال أفريقية، والحجاز، واليمن، وسورية.

صلاح الدين: الحمد لله.. كونوا متيقظين جميعاً... لقد خضنا كثيراً من المعارك.. لكن الآن..

القاضي: أيها القائد: - لقد مكثت ست سنوات وأنت ترتب الأوضاع الداخلية في مصر والشام.. من أجل معركة فاصلة مع النصارى المعتدين..

صلاح الدين: هو استيلاء هؤلاء الكفرة على بيت المقدس قبلة المسلمين الأولى وثالث المسجدين الشريفين أيها القاضي بهاء.. يتحرشون بنا.. ونصبر على مضض!.

مظفر الدين: نحن طوع أمرك أيها الأمير.. لقد حاول (أرناط) حاكم الكرك الصليبي أن يعبر البحر الأحمر ليسيطر على مكة والمدينة ويتحكم بطريق التجارة والحجيج على الرغم من الهدنة التي بيننا!؟.

صلاح الدين: أعلم يا مظفر لقد اعتدى على قافلتنا.. وقد استهتر أيضاً بديننا ونبينا، وأقسم بالله لأقتلنّه.. يا بن أخي!!

تقي الدين: أمرك أيها الأمير.

صلاح الدين: لقد استكملنا استعداداتنا.. وعلينا الآن أن نعلن النفير العام! ونهيئ الكتائب المجاهدة.. ونعلن الجهاد في كل مكان!

الجميع: ليكن ذلك.

صلاح الدين: يا مظفر! إن السرية التي قدتها بالقرب من صفورية واشتباكك مع الإفرنج وانتصارك عليهم فتح لي الطريق إلى حطين!

القاضي: الله أكبر! أيها الأمير بارك الله في جهودك!.

صلاح الدين: يابن أخي: ستكون قائداً للجناح الأيمن، وأنت يا مظفر الدين ستكون قائداً للجناح الأيسر وسأكون قائداً لقلب الجيش. وأنت أيها القاضي بهاء ستكون مرافقي وصاحبي.

القاضي: على بركة الله.. يا رجال..

تقي الدين: إذن ليعبر جيشنا نهر الأردن، ونتحرك إلى طبريا.. وعلى بركة الله.. يخرجون.. تُطفأ الأنوار.. ثم تُضاءُ.. إيذاناً بمرور وقت المعركة!

يدخل الرجال:..

رجل أول: الله أكبر .. لقد انتصر جيشنا في معركة حطين ضد الصليبيين!

رجل ثان: استعصت القلعة علينا.. إلا أنها سقطت بعد ذلك.. وتساقطت معها كل المناطق المجاورة.

رجل ثالث: لقد تمكن صلاح الدين بعد معركة حطين - أن يسقط عكا وتبْنين.. وصيدا.. وجبيل.. وبيروت.. وعسقلان.. والداروم.. وغزة.. وبيت لحم.. والنطرون..

الرجل الأول: وبعد ثلاثة أشهر تمكن من تحرير بيت المقدس بعد حصاره أسبوعاً وقد تسلمه صلحاً!.

الرجل الثاني: الله أكبر! لقد ارتفعت معنويات المسلمين.. وهللوا مكبرين ساجدين لله العظيم.. الله أكبر!

الرجل الثالث: لقد ولول الصليبيون وصعقوا

بانتصارات المسلمين.. إنها ضربة قوية على وجودهم.

الرجل الأول: أما سمعتم.؟

الرجال: ماذا؟

الرجل الأول: عندما علم «البابا أوربان الثامن» بسقوط القدس في أيدي المسلمين.

الرجال: ماذا فعل؟

الأول: يتابع: سَقَطَ قلبُه!

الجميع: ماذا؟!

الأول: نَعَم.. وَقَع ميتاً من هول الصدمة!

الجميع: الله أكبر.. الله أكبر ولله الحمد..!!

الرجل الثاني: إنّ خليفة البابا غريغوريوس الثامن الكاثوليكي.

الجميع: ما به!

الرجل يتابع: بدأ في حملة صليبية ثالثة جديدة.

الرجال: الله أكبر.

الرجل الثاني: طلب هذا البابا من النصارى:

أولا: الصيام يوم الجمعة كل أسبوع لمدة خمس سنوات.

ثانياً: الامتناع عن أكل اللحم مرتين في الأسبوع.

ثالثاً: نذر الكاردينالات بالتجول مشياً على الأقدام في فرنسا وإنجلترا وألمانيا للدعوة إلى تلك الحملة الصليبية اللئيمة..

الرجال: الله أكبر!

الرجل الأول: لكن يا رجال!..

الجميع: ماذا؟!

الرجل الثاني: هذه الحملة لم يعد لها هدف ديني كالحملات السابقة.. لأن النصارى بدأت تَرجم الجُباةَ بالحجارة لفشلها الديني، ومكاسبها التجارية...

الجميع: الله أكبر!!

يدخل صلاح الدين ورجال الحاشية:

القاضي: أعزك الله أيها الأمير!

تقي الدين: وبارك الله بالجهود التي قمت بها.. لقد خضْت أربعاً وسبعين معركة وكنت فيها القائد الملهم الذي يرفع راية الله مرفرفة خفاقة!

يدخل مع الركب الشاعر أبو الحسن بن علي الجويني، يرحبون به ويطلبوك منه الإنشاد... **فينشد:**

تسعون عاماً بلادُ الله في كمد
وليس للدين والإسلام أعوان
فالآن لبى صلاحُ الدين دعوتَهم
بأمرِ مَنْ هو للمعوان معوانُ
إذا طوى اللهُ ديوانَ العباد، فما
يُطوى لأجرِ صلاحِ الدينِ ديوانُ

الجميع: الحمد لله!!

يخرجون ويكون صلاح الدين آخر الخارجين،، وإذ:

بصوت من داخل المسرح يجعل صلاح الدين يتوقف ليجيب على ما يُسأل عنه:

صوت من جمهور المسرح:

الصوت: صلاح الدين الأيوبي قف!..

(صلاح الدين يقف في المسرح ناظراً للجمهور..)

يتقدم السائل: صلاح الدين الأيوبي مَن أنت؟

صلاح الدين: مسلم بسيط من مسلمي هذه الأمة.

السائل: والدُك؟!.

صلاح الدين: والدي نجم الدين أيوب بن شاذي جاء من قرية تدعى دُوين. من إقليم «آران في أذربيجان» مع أخيه أسد الدين شيركوه.

السائل: نسبك؟

صلاح الدين: أنتسب إلى أسرة كردية من أكراد الرداوية..

السائل: ولادتك؟

صلاح الدين: شاء الله أن أولد في قلعة تسمى «تكريت».. قرب بغداد عام ٥٣٢ هـ ثم ترعرعت في الموصل.. وقضيت فترة شبابي في بعلبك.. تدربت فيها على الفروسية ومقاتلة الرجال.. وممارسة السياسة.

السائل: عملكُ في دمشق؟

صلاح الدين: أسندت إليّ رئاسة الشرطة فيها.. فطهرت المدينة من عبث اللصوص والقتلة.. وجعلت الأمن والاستقرار مستتباً.

السائل: وفي مصر؟

صلاح الدين: خرجت مع عمي أسد الدين شيركوه لنجدة «شاور السعدي» الذي ثار ضد الخليفة الفاطمي العاضد.. وتمكنت مع عمي ضمّ مصر إلى حكم نور الدين محمود سنة ٥٦٤هـ..!

السائل: صلاح الدين الأيوبي ما علمك؟